

## ابن خلدون و محاربته للخرافة

الاستاذ سعيد زائد

المدير العام لمجمع اللغة العربية

القاهرة

عند ما يقال ابن خلدون، يقصد بذلك عالمان . اما يحيى (ابو زكريا) الذى ولد بتونس حوالى ٥٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) وتوفى بتلمسان فى رمضان عام ٥٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) وقد درس بمسقط رأسه دراسة لا يعتمدها كل أوفنور، و كان على اتصال وثيق بمشاهير العلماء فى عصره بقصبة بنى حفص، و كان يميل للشعر والأدب . و اما عبدالرحمن (أبو زيد) و يلقب بولى الدين، و قد ولد بتونس ايضا فى أول رمضان عام ٥٧٣٢ هـ (٢٧ مايو ١٣٣٢ م) وتوفى بالقاهرة فى الخامس و العشرين من رمضان عام ٥٨٠٨ هـ (١٩ مارس ١٤٠٦ م)، و بعد ان حفظ القرآن قرأ على والده و على أكابر علماء تونس و قد درس النحو و اللغة و الفقه و الحديث، و كذلك الشعر، و أتم دروسه فى المنطق و الفلسفة و التوحيد و الشريعة و غير ذلك من العلوم العربية، و هو الذى نعينه فى حديثنا هذا .

كان ابن خلدون شخصية عربية ممتازة، و عالما نحرياً، أفنى عمره فى الاطلاع على كتب التاريخ و أحوال الأمم، بل فىلسوفاً كبيراً لم تكن قراءته للكتب لمجرد الالمام بالشئ، و انما كانت قراءة من يعمل عقله فى المشاكل و الظروف

التي مرت بها الاسم، فيستخلص منها قواعد عامة متشابهة، تسير عليها الشعوب والحكومات في تطورها .

قرأ فيلسوفنا العربي التاريخ، و ألم بدقائقه و خوافيه، فهداه عقله الراجح و ذهنه المتوقد الى أن المجتمعات الانسانية تسير في أحوالها و تطورها و رقيها وفق قوانين ثابتة مطردة لا تقبل التخلف . و العلامة ابن خلدون باكتشافه لهذه الحقيقة انما يعد الواضع الأصيل لعلم الاجتماع، ولا يقتصر عند هذا الحد، بل يتعداه الى التحدث عن فروع العلم والافاضة في جزئياته، فسبق بذلك علماء الغرب أمثال مونتسكيو وأوجيست كونت، اما لماذا لم يسطع اسمه بين جدران الجامعات التي درست هذا العلم، فانه يرجع الى سوء حظها، بل الى سوء حظ الأمة العربية كلها، فلم يظهر بعده تلاميذ يسيرون على نهجه، بعكس علماء الغرب الذين ظهر بعدهم من التلاميذ من يزيد علمهم صقلا و تهذيبا .

و لكن التاريخ المنصف لم يترك ابن خلدون في زوايا النسيان فقد ظهر في القرن العشرين من تناول آثاره بالدرس و التمحيص، و قارن بينها و بين آثار الغربيين، فتبينت له الحقيقة الرائعة، و هي سبق الفيلسوف العربي لعلماء الغرب في اكتشاف أساس علم الاجتماع بمدة تقرب من خمسة قرون .

و أهم ما في آثار ابن خلدون — بالنسبة لموضوعنا — مقدمته، التي كانت و ستظل منبعاً خصيباً للدارسين في جميع فروع علم الاجتماع، وهي و ان كانت كذلك فان تناولنا لها في هذه الكلمة ليس من ناحية العلم، بل من ناحية الفن، الفن الاصلاحى الذى يقوم على دراسة أحوال المجتمع دراسة دقيقة و معرفة مايناسبه من وجوه الاصلاح، وما يتمشى مع رغباته، وما يتعارض معها .

و ان اول ما يطالع المتصفح لمقدمة ابن خلدون يراه يعقد فصلا تحت عنوان "المقدمة في فضل علم التاريخ"، يحارب فيه الخرافات التي كانت منتشرة في زمانه، و يضعها تحت مجهر العقل المدقق الفاحص، و يناقشها بالحجة المنطقية . فان كان "فن التاريخ"، فنا عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الائم في اخلاقهم، والانباء في سيرهم، والملوك في دولهم و سياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرويه في احوال الدين والدنيا،، فان فنا كهذا "يحتاج الى سآخذ متعددة و معارف متنوعة و حسن نظر و تثبيت، يفضيان بصاحبهما الى الحق و ينكبان به عن المزلات و المغالط، لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة، و قواعد السياسة، و طبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور و سزلة القدم، .

بعد هذا يعرض لنا العلامة ابن خلدون نماذج و أمثلة من الخرافات التي قال بها مؤرخون أمثال المسعودي وغيره، و يتناولهم بالحجج العقلية، فيتبين له منها مقدار المبالغة في سردها و طريقة روايتها، ولو انهم "قاسوها بأشباهها و سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات و تحكيم النظر والبصيرة في الاخبار،، لما ضلوا عن الحق و تاهوا في ببداء الوهم والغلط، سيما في احصاء الأعداد من الاموال والعساكر، .

فقد ذكر المسعودي و كثير من المؤرخين أن جيوش بني اسرائيل بعد أن أحصاهم موسى عليه السلام، و أجاز من يطبق حمل السلاح، خاصة من ابن عشرين في فوقها، بلغوا ستمائة ألف أويزيدون، و هذا العدد مبالغ فيه في رأى

ابن خلدون، لأن راويه ذهل عن تقرير مصر والشام، و مقدار اتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش . زد على ذلك أن ملك الفرس و دولتهم كان اعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير، بدليل غلب بختنصر لهم، والتهامه بلادهم، و تخريبه لبيت المقدس قاعدة سلطانتهم، مع ما نعرف من عدم اتساع نطاق ملك بنى اسرائيل الى غير الاردن و فلسطين من الشام، و بلاد يثرب و خيبر من الحجاز . و يفيض ابن خلدون في ذكر الحجج التي لا يتسع لها نطاق مقالنا، بل نكتفي بما ذكرنا .

و قصة اخرى يتناولها فيلسوفنا بالتمحيص، وهي التي ذكرها المفسرون في تفسير سورة الفجر، في قوله تعالى — "ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد، ، فيقولون ان ارم اسم مدينة ذات عماد، فلقد كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد و شداد، ملكا من بعده، فهلك شديد، فخلص الملك لشداد و دانت له بلوكهم، و حدث ان سمع شداد وصف الجنة، فقال : لأبني مثلها، فبنى مدينة ارم في صحارى عدن في مدة ثلاثمائة سنة، و كان عمره تسعمائة سنة، فجاءت مدينة عظيمة قصورها من الذهب و أساطينها من الزبرجد و الياقوت، و فيها اصناف الشجر والانهار العذبة . و لما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته، حتى اذا كان منها على مسيرة يوم و ليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم .

هذا ما ذكره الطبرى و الثعالبي و الزمخشري و غيرهم من المفسرين . و يذكر ابن خلدون بعد ذلك ما نقلوه عن عبدالله بن قلابه من الصحابة انه خرج في طلب ابل له فوق عليها و حمل منها ما استطاع، فلما بلغ خبره الى معاوية أحضره فقص عليه قصته، فبعث معاوية الى كعب الأخبار يستفسره، فقال كعب : هي ارم ذات العماد، و سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك احمر اشقر قصير

على حاجبه خال و على عنقه خال، يخرج في طلب ابل له، ثم التفت فأبصر ابن قلابه، فقال هذا والله ذلك .

هذه القصة و حواشيتها، هي خرافة في رأى ابن خلدون و الذى حمل المفسرين على القول بذلك في رأيه، هو ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة "ذات العماد"، انها صفة ارم و حملوا العماد على الاساطين، فتعين ان يكون بناء، و ساعدهم على ذلك قراءة ابن الزبير "عاد"، على الاضافة من غير تنوين . و الحقيقة هي ان العماد هي عماد الأخبية، بل الخيام، و ان أريد بها الاساطين، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء و اساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم، لانه بناء خاص في مدينة معينة او غيرها، و ان اضيفت كما في قراءة ابن الزبير، فعلى اضافة الفصيحة الى القبيلة، كما تقول - قريش كنانة و الياس مضر و ربيعة نزار . ولا يرى ابن خلدون أية ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى تقصده أمثال هذه الحكايات الواهية التى ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة .

و قصة ثالثة هي قصة العباسة أخت الرشيد و جعفر البرسكى وما ينقلونه من ان سبب نكبة الرشيد للبرامكة هو اختلاط جعفر بالعباسة . و لابن خلدون في هذه القصة دفاعان - دفاع عاطفى يقول فيه - "فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والزكاة اذا فقدا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى و تدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم بملكة، جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول و أشراف قريش، و غايته ان جذبت دولتهم بضبعه و ضبع ابيه، و استخلصتهم ورقتهم الى منازل الأشراف"، . و دفاع عقلى يبرر فيه غضبة الرشيد على البرامكة لما كان من استبدادهم و احتجافهم

الجباية لدرجة ان كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه، فكانوا غالبين على امره و مشاركين في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في اسور ملكه، ولما عظمت آثارهم و بعد صيتهم عمروا خطط الدولة و مراتبها بالرؤساء من ولدهم و صنائعهم، ”و احتاز واعمن سواهم من وزارة و كتابة و قيادة و حجابة و سيف و قلم، زد على ذلك أن الناس ضجوا من هذه الحال و تمهاسوا بها في مجالسهم الخاصة و في مجالس الرشيد، فلقد أراد الشاعر أن يحرك حفيظته، فدس على المغنين البيتين التاليين :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد و شفت أنفسنا سما نجد

و استبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال : ”أى و الله إني عاجز، .

هذه هي الأسباب الحقيقية في نكبة البراسكة، كما يقول العلامة ابن خلدون : استبدادهم الى درجة أثارت الحفيظة في قلوب القوم، و استدادها الى سمع الرشيد . هذه بعض الأمثلة التي تدل على مخاربة فيلسوف المغرب للخرافة، و نظر الى حوادث التاريخ نظرة عقلية فاحصة، و عدم مبالاته لأحد في قول الحق .

